المؤلفات النوازلية لفقهاء المالكية

أبو القاسم عظوم نموذجا

أ/مريم عطية

أعني بالقراءة التّاريخية الفترة الّزمنية التي دوّن فيها المؤلّف كتابه ، وأعني بالقراءة الفقهية ما امتازت به مؤلّفات الفقيه أبو القاسم عظّوم المرادي عن غيرها من كتب الفقه وما اعتبر منها جهدا مبتكرا .

وكلا القراءتين ملمح مهمّ حقيق أن يُبرَز للباحث في الفقه المالكي ليُتَعرّف إلى العلماء المغمورين منهم الذين أضافوا للفقه المالكي مؤلّفات لا زال أكثرها مخطوطا يحتاج إلى جهد لإبرازها .

1.أبو القاسم عظّوم أحد أفراد أسرة العظاظمة الذين أمدّوا القيروان بالعلماء المالكيين

من يلق نظرة على كتب التراجم [1] التي ترجمت لأبي القاسم عظوم يلاحظ أنّ كلّها يتّفق على أنّ الشيخ أبا القاسم[2] بن محمّد مرزوق بن عبد الجليل بن محمد بن عيسى بن أحمد بن عبد العظيم بن أبي بكر بن عيّاش بن فندار المرادي سليل أسرة استقرت بالقيروان واشتهرت بالعلم والفضل تولّى رجالها خطط الإشهاد والإفتاء والقضاء .

ولقد اجتهد محمّد الحبيب الهيلة في وضع قائمة أوّلية لهذه العائلة أبرز فيها أهميتهم في المجتمع القيرواني ثم التّونسي أحصى عددهم فوجدهم :ثلاثة عشر قاضيا من قضاة القيروان وخمسة مفتين بها ، منهم أربعة جمعوا بين وظيفتي القضاء والإفتاء ، وثلاثة خطباء بجامع الزيتونة بالقيروان ثم ثمانية من الموثّقين والشهود وبعضهم اعتبرهم من الطبقة المثقّفة [3]، وأخيرا استنتج أنّ أكثر الوظائف التي تولاّها العظاظمة هي وظيفة القضاء ثم وظيفة التوثيق .

1.1الجدّ الأعلى لابن عظوم فقيها :

في تكميل الصّلحاء والأعيان أنّ محمدا والد عبد الجليل جدّ المترجم أخذ عن البرزلي وله مؤلّفات فقهية قيّمة اعتمدها ابن عظوم في أجوبته أهمّها :

- المباني اليقينية في حكم المسألة العيدودية
- الدكّانة
- مختصر فقهي مثل مختصر ابن عرفة بل أكثر منه وضوحا وقد اعتمده أبو القاسم عظوم في مؤلفاته ونقل عنه وكثيرا ما كان يقول : قال الشيخ الجد رحمه الله تعالى في مختصره الفقهي .
- رسالة التمليك أو إرشاد الرّاغب في العلم بالتّحقيق في مساواة الشّرط الطّوع في التّمليك بالتعليق [4].
- رفع الإلباس في حكم بيع ما خرب من الأحباس .

ولمحمد بن عظوم ما يقارب الثمانية وعشرين مؤلّفا في الفقه ذكرها كلها محمد الطّاهر الرزّقي في متطلّبات الشّهادة على المشهود عليه [5].

2.1الجد الأدنى لابن عظوم من رجال الحديث

جدّ ابن عظوم الأدنى هو الشيخ عبد الجليل وقد كان من رجال الحديث ومن المحبين في الحضرة النبوية ألّف :

- كتاب تنبيه الأنام في بيان علوّ مقام نبيّنا عليه أفضل الصّلاة والسّلام .
- تذكرة أهل الإسلام في الصّلاة على خير الأنام.
- مصابيح العلا رواية النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه جلّ وعلا .

أما والد المترجم فلم تذكره كتب التراجم كما أشار إلى ذلك محمد الشاذلي النيفر من خلال أجوبة أبو القاسم عظوم فقد حلاّه في غير موضع بالقاضي [6]

2.ظلمات العصر السّياسي التي لمع فيها أبو القاسم عظوم

عاش أبو القاسم عظّوم أكثر من النّصف الثّاني من القرن العاشر والعقد الأول من القرن الحادي عشر فترة ضعف الدّولة الحفصيّة وانقراضها واستيلاء الاسبان على جهات هامّة من التراب التونسي كما شهد فترة الفتح العثماني وتركيز نظام سياسي وإداري جديد.

مرحلة انحطاط الدّولة الحفصيّة

عاش أبو القاسم عظوم مرحلة انحطاط الدّولة الحفصيّة التي كانت قبل هذا قوية سياسيا واجتماعيا بل كانت العلوم فيها مزدهرة ونبغ فيها الكثير من العلماء كعبد الرحمن بن خلدون ، وابن عرفة ، والبرزلي ، والأبي ، وغيرهم وقد عاصر ابن عظوم أواخر ملوك بني حفص من بينهم : الحسن بن محمد وابناه : أحمد بن الحسن ، ومحمد بن الحسن وكلّهم كان بينهم وبين الشّعب قطيعة لاستجلابهم النّصارى الذين استولوا على البلاد وقتّلوا العباد، فقد استنجد أبو الحسن بشارلكان الذي احتلّ البلاد ، وسلك هذا المسلك ابنه أحمد بعد أن تفاقمت مشاكل الأعراب ومشاكل أخرى حدثت بينه وبين قادة الجزائر العثمانيين [7]

يروي ابن أبي دينار أخبار هذه الهجمة فيقول :" كان فيها الخطب جليلا وكانت في زمن الخريف وغالب أهل البلاد عرائس فانهتك حجابهم وافتضحوا ونالهم من الهوان ما لم يعهدوه ، وصنعوا نوائل في الغابات وسكنوا بها ، وتسوّلوا بين خيام البادية ... ودعاهم السّلطان إلى الرّجوع فمن وجد داره أخذها ومن وجدها بيد النّصارى أوكل أمره إلى الله ، وقُسّمت المدينة قسمين :كفر ، وإيمان وفي تلك الأيّام أهين المسجد الأعظم ، ونهبت خزائن الكتب التي به ودرست بأرجل الكفرة معالم المدارس وتفرّقت جميع ما فيها من دواوين العلوم وتبدّدت الشّوارع ..."[8]

إثر هاتين الهجمتين الصّليبيتين اللّتين كانتا تحت غطاء ديني تحرّك الأسطول العثماني من خلفية دينية أيضا وخلّص البلاد التّونسية من الاستيلاء العثماني .

ولقد وُصِف العثمانيين بأنهم مستبدّين وهذا ما نهج عليه الكثير من قوّادهم لتنازعهم فيما بعد على السّلطة وفي أجوبة ابن عظوم ما يشير إلى الكثير من تصرّفاتهم المستبدّة ،

ومنهم من ذهب إلى أبعد من هذا فقد اعتبر أنّ الفتح العثماني لم يكن له أيّ إشعاع حضاري على أهل تونس لأنّ الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ظلّت متردّية إلا أنّ ما يُحسَب للأتراك من إيجابيات هو تخليص البلاد التّونسية من الاستعمار الإسباني[9]

في هذا الجوّ العاتم وسط انحسار العلماء وضياع مراكز العلم لمع نجم أبو القاسم عظوم الذي أحيا المذهب المالكي في فترات ركود

3. مؤلفات أبو القاسم عظوم :

- برنامج الشّوارد على الشّامل لبهرام
- برنامج وثائق الفشتالي
- تراجم المختصر الخليلي
- الأجوبة
- رسالة في نعوت المشهود عليه
- مناهل الورود ومبحث القضاء بموجب الجحود
- الأدلة المحكمة المجازة في افتقار التبرعات إلى القبول والحيازة
- تخميس الشّقراطسيّة

وفي مقالي هذا سأتناول المؤلّفات الآتية بالتّحليل

- برنامج الشّوارد على الشامل لبهرام
- برنامج وثائق الفشتالي
- تراجم المختصر الخليلي
- الأجوبة وهي آخر وأهمّ ما ألّف الفقيه

أ- الأجوبة :

هي أهمّ ما ألّف الفقيه أبو القاسم عظّوم وتسمّى بالأجوبة العظّومية أو أجوبة ابن

عظوم .

ذكر الكناني أنها في اثني عشر جزءا[10] وقال مخلوف : وأجوبة على نوازل في الفقه سئل عنها في نحو الثلاثين مجلدا محررة مع إطناب وغير ذلك

وذكر الشيخ محمد الشاذلي النيفر في بحثه الذي أصدره بالنّشرة العلمية للكلية الزيتونية أنه وقف على أربعة أجزاء هي 1، 5، 6، 7

أ.أ– نظرة على مخطوطات الأجوبة

يقول الدّكتور محمد الحبيب الهيلة وهو محقّق كتاب الأجوبة ، والذي قطع شوطا في البحث والتنقيب عن المخطوطات داخل تونس وخارجها أنّه لم يعثر خارج تونس على مخطوطات لكتاب الأجوبة إلا ما كان بدار الكتب الوطنية بتونس حيث وقع على تسع وثلاثين جزءا ونسخة .

جزء بمكتبة الشّيخ محمد الشاذلي النيفر وثلاثة أجزاء بمكتبة الشّيخ محمد الصّالح النيفر ونسخة من الجزء الثّامن نادرة على ملك الدكتور الحبيب الهيلة .

ويشير أحمد قاسم في رسالته [11] أنّ في مكتبة آل عاشور نسخة ليست مطابقة لما وضعه المؤلف أبو القاسم عظوم بل هي مرتبة على أبواب كتب الفقه والنّوازل وهذه النسخة تقع في أربعة أجزاء ويشير أحمد قاسم أنّ واضعها هو من أحفاد المؤلف .

أ.ب – كتاب الأجوبة لماذا جاء مخالفا لمناهج كتب النوازل المالكية ؟

لقد تتبّعت سابقا في أحد مباحث رسالتي للدّكتوراه مناهج التأليف في النّوازل عند المالكية من القرن الثالث إلى القرن الرابع عشر وتمكّنت من تقسيمها إلى أقسام واضحة تمثلت في ما يأتي :

القسم الأول : قسم يجمع فيه الفقيه أجوبته وأجوبة غيره من معاصريه أو من السابقين له ويرتبها على ترتيب أبواب الفقه كالمعيار المعرب ، ونوازل البرزلي .

القسم الثاني: قسم يجمع أجوبة فقهاء ينتمون إلى منطقة واحدة أو إلى مدينة واحدة و من بين تلك الكتب الدّرر المكنونة في نوازل مازونة ، والنّوازل الجديدة الكبرى في أجوبة أهل فاس وغيرهم من البدو والقرى.

القسم الثالث : قسم جمع أجوبة فقيه واحد جمعها أو جُمعت له إبّان فترة تولّيه الفتوى أو القضاء كفتاوى ابن رشد التي جمعها تلميذه محمّد بن أبي الحسن بن الوزان ت 543هـ

القسم الرابع : قسم يمثّل أجوبة الفقيه عن قضية واحدة فقد تعدّد التأليف في القضايا المفردة مثل الرّسالة التي كتبها الونشريسي بعنوان : أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النّصارى ولم يهاجر وما يترتّب عليه من العقوبات و الزواجر.

القسم الخامس : ما يجمعه صاحبه للتأليف في قضايا متعدّدة ولكنّها محصورة والذي يقرأ كتاب الأجوبة يلاحظ أنّ السّمة الغالبة على الكتاب هي عدم التّرتيب الموضوعي وعدم التّرتيب التاريخي ونقصد بعدم التّرتيب الموضوعي أنه لم يرتب كتابه على ترتيب أبواب الفقه كغيره ممن سبقه من علماء المالكية كما أنه لم يحترم الترتيب التاريخي لورود نوازله متفرّقة ومتباعدة تاريخيا [12]، ولعلّ اختيار المؤلّف لعنوان الأجوبة جعل الأمر واسعا بالنّسبة له فهو يجمع ما لديه من أسئلة مختلفة التّواريخ ليجيب عنها

وقد أجمل الطّاهر الرّزقي محاور الأجوبة العظّومية فيما يأتي :

- أسئلة أشخاص عن أمور تتعلق بهم يريدون معرفة حكم الله فيها .
- مطالبته بإبداء رأيه في الفتاوى صدرت في عهده .
- مطالبته بإبداء رأيه في أحكام صدرت في عهده.
- مشاركته في مجالس علمية فقهية تحت رئاسة الباشا للنظر في مسائل شائكة
- يورد أحيانا بعض فتاوى غيره [13].

أ.ج– منهج ابن عظوم في أجوبته :

الملاحظ على كتاب الأجوبة أنّ مؤلّفه التزم تقريبا خطوات موحّدة في طرح القضية

والإجابة عنها فهو أوّلا يعرض القضية بدقائقها معتمدا على ما بين يديه من الوثائق

يذكر اسم السّائل ومكان سكناه ويؤرّخ للمسألة تأريخا دقيقا وهو الشّيء الذي لم يعهده الفقهاء من قبل في كتب النوازل .

المثال الأول: الحمد لله سُئلت بتونس بعد انصرافي من القيروان إليها في أوائل صفر الخير عام ثلاثة وثمانين وتسعمائة 983هـ / ماي 1575م عن التزام لطيفة أداء مال لحفيدها محمد الفضلي كان ضَمِن فيه محمد الدّخلي ولدها محمد المغراوي والتزمت بأدائه من مالها وإن دفعه حفيدها المذكور لربه وهو الحاج مامي من الأعلاج فإنها تؤدّيه إليه ثم دفعت بعض المال وبقي بعضه [14]

المثال الثاني : الحمد لله سئلت في قضية إرث الحاج قاسم أبي عاشور السّوسي من زوجته بنت المرابط محمد أبي راوي السّوسي .

فما لاحظناه في المسألتين السابقتين هو منهج اتبّعه ابن عظوم في أجوبته فهو يذكر اسم السّائل كما يورد الكثير من التفاصيل عن العائلات والقبائل والمدن والأماكن والمباني كما يذكر أنواع الوظائف الشّرعية والمخزنية، ولا يغفل ذكر الصّناعات والحرف ويتوسّع في بيان بعض المظاهر الحضارية كالألبسة والأطعمة وغيرها

إنّ باحث التاريخ سيجد مادة ثرية وواقعية لصورة الحياة الاجتماعية والاقتصادية التي عاشتها تونس بعد انعتاقها من السّلطة الاسبانية وبداية تفاعلها مع السّلطة العثمانية

المثال الأول: ... ثم توفي الزوج فرغب أبوه بأكابر البلد أبا الزوجة أن يعطيه خمسة عشر كرونة [15]

المثال الثاني : الحمد لله التاجر علي المهدوي قامت عليه بينة بأنهم عاينوه بدار فلان إثر رجوع النّاس من وادي الدّواميس إلى تونس من وقيعة الجمعة [16]

والمستفتون الذين ذكرهم أبو القاسم عظوم في أجوبته لم يكونوا من مدينة تونس

وأقاليمها بل استفتي أبو القاسم عظوم أيضا من مدينة عنابة ، والجزائر وتبسة وعرضت عليه فتاوى كثيرة من قسنطينة ، وكذلك استفتاءات من صفاقس وجربة بالرّغم من اعتبارها في ذلك الوقت أقاليم تابعة لولاية طرابلس

ولا يخرج أبو القاسم عظوم في إجاباته الفقهية عن مشهور المذهب وما به العمل وعادة ما يكون قوله اختيارا لرأي من آراء العلماء وربما سار قاسم أحمد أبعد من هذا حين قال : ولقد ساق أبو القاسم عظوم بعض الآراء وأردف ذلك قائلا : وهو قول ابن القاسم وبه قال شيوخ قرطبة :ابن لبابة وغيره وبه العمل وبه أقول ويتبين من سياق العبارة أنّ مجال اختيار ابن عظوم يكاد يكون منعدما حتى أنّ كلمة – وبه أقول – ليس لها موجب وهي فائدة لمدلولها لأنّ القول الذي اختاره هو القول الذي به العمل [17].

وإن كنت لا أوافق ما ذهب إليه أحمد قاسم ولا أرى قوله صحيحا على إطلاقه فعبارة به أقول بعد أقوال ابن القاسم وغيره يستخدمها المتأخرون للاستئناس بالرّأي المختار بمعنى أنّه لم ينفرد بهذا الرّأي المختار وليس فيها ما يوحي على تبعية الرجل الفقهية وإن كان مجتهدا داخل المذهب.

أ.د– دقّة أبي القاسم عظّوم في ذكر مصادره :

إنّ النّاظر في كتب النّوازل عموما يلحظ أنّ الفقيه المجتهد في النّوازل يستند إلى أقوال سابقيه مما يعضّد دائما رأيه في المسألة ومنهج أبو القاسم عظوم الذي لاحظته في كتابه الأجوبة يتميز بطريقة فريدة لم ينهجها من كان قبله ،وذلك في ذكر مصادره التي اعتمد عليها ، فهو لا يذكر أقوال سابقيه فحسب بل يشير كثيرا إلى اسم المصادر التي استقى منها معلوماته[18] ويشير إلى الجزء أو القسم أو الفرع وكثيرا ما يذكر أرقام الصّفحات وهذه المنهجية كما أشار جمعة محمود الزّريقي في الإيعاز للمصادر وهي المستعملة في الوقت الحاضر تدلّ على أنه سابق لعصره في دقّة النّقل بما تجعله حريصا على الأمانة العلمية [19].

أمثلة :

– نقله الشيخ البرزلي في السادسة والعشرين من الاجارات وسلّم بسكوته عنه وذيل عليها فروعا ونظائر في الموفاة عشرين من الأقضية من حاويه ونقله الشيخ ابن ناجي أيضا في سابعة عشرة رهون كبيره [20]

– وأعرف ما في الخامسة والعشرين من بيوع البرنامج في بحث دفع المثلي في الإقالة لا يجوز إلا أن يكون عينا فله دفع مثلها ولو كانت بيده بناء على انها لا تتعين ، واعرف ثامنة تفليس ابن عرفة وأواسط آجال الوانوغي عتق المديان [21]

أ.هـ– اعتماد أبو القاسم عظّوم على أقوال البرزلي :

لم يتتلمذ أبو القاسم عظّوم على البرزلي ولكن جدّه الثّاني محمد بن أحمد بن عيسى بن عبد العظيم بن فندار بن عظوم تتلمذ على تلامذة الشّيخ البرزلي فاكتسب طريقته ومنهجه وله مؤلفات عديدة في المذهب المالكي أدرجتها سابقا .

وقد كانت هذه المؤلفات عمدة أبو القاسم عظّوم في أجوبته وغيرها وممّا يثير الاهتمام اعتماد أبو القاسم عظوم في أجوبته على آراء البرزلي بشكل اعتبره مرجّحا بين الأقوال في كثير من المسائل

أمثلة :

– فيمضي الأكثر بظاهره بعد الوقوع فهو خلاف ما به العمل عند البرزلي [22]
– وبمثله أفتى الشيخ أبو الحجّاج بن أبي العرب ، وعضّده الشيخ البرزلي [23]

إذا قلبنا صفحات الأجوبة سنلحظ بما يؤكّد قيمة البرزلي في عصره فقد كان يمثّل مرحلة حية وحيوية من العصر الحفصي مع شيخه ابن عرفة الذي لازمه أربعين سنة والأبي وغيرهم بل شكّلوا مدرسة يُرجع إليها .

أ.ز– لغة كتاب الأجوبة :

إذا كانت كتب النّوازل تسوق صورة واقعية لحياة الناس الاجتماعية والاقتصادية

فإن لغة كتب النوازل تمثل في بعض صورها مظهرا آخرا لتطوّر هذه الحياة فإذا تصفّحنا كتاب المعيار للونشريسي نجده لا يتردّد في سوق بعض الألفاظ العامّية التي يجب أن يستخدمها كما هي لأنها ببساطة تمثّل الدّلالة العرفيّة التي من خلالها يتمكّن الفقيه من استنباط الحكم الشّرعي المناسب .

وكذلك الأمر في جامع مسائل الأحكام للبرزلي وغيره من الكتب المعتمدة في المذهب أمّا إذا تصفّحنا كتاب الأجوبة فإننا نجد أبو القاسم عظوم يستخدم ألفاظا عامّية أيضا تؤدّي مدلولاتها ومثال على ذلك ما يأتي :

- مثال : سئلت عن قضية الولدين قاسم بن نجارة ووصية أحمد السفلة الجبالي بباب الجزيرة وهي أن رجلا أرسل مع جمال **شكارة** [24]
- اعترف الصغيّر لسالم **بالمربعين** [25]**والقرقطون**[26] **والسدة** [27] **والقطيفة**[28] واعترف سالم للصغيّر **بالكلة الخرصين الذهب والقطيفة والزربية** فهو اعتراف في مقابلة اعتراف ظاهر في العوضية
- واستبشر وصاغ لها حلقة للطرز من فضة ، ثم قدم وبعث لها الحلقة مع **سفساري** حرير والهدية التي في عرفهم
- و انا أفتح بابها خارج **الزنقة** .
- سئلت عمّن جعل حاجة وديعة في مخلاة ثم في **خرج**[29] على ظهر البغلة ثم زعم أنها ضاعت وسقطت .

هذه أمثلة بسيطة جمعتها من كتاب الأجوبة ودارس الفقه إذ يعرض لهذا المبحث فهو مهمّ لدلالات الألفاظ على المعاني التي يفهمها الفقيه ويكون من خلالها حكما

شرعيا

برنامج الشّوارد على الشامل ، برنامج الفشتالي ، تراجم المختصر الخليلي والمقصود من التراجم العناوين والأبواب وسأعرض لكل برنامج على حدا

ب- برنامج الشّوارد على الشامل :

كتاب الشّامل في فروع الفقه المالكي لتاج الدّين بهرام وهذا الكتاب كان معتمدا في تونس عند المفتين والقضاة وقد وضع عليه أبو القاسم عظوم برنامجا تمثل في الآتي :

- استخراج مسائل الكتاب .
- الإشارة إلى ما تكرر منها .
- الإشارة إلى المشهور من الآراء وما وقع العمل بها .
- إضافة بعض المسائل وبسط القول فيها .
- الإشارة إلى الآراء الغامضة.

هذه المقاصد من التّأليف ذكرها المؤلف في مقدمة كتابه قائلا: وضعنا هذا البرنامج لاستخراج مسائل الشّامل ، وحققّت عزو ما تكرّر فيه ذكره ونبّهت على ملمّات غامضة إلى العزو وعلى ما وقع من تشهير أو عمل أو فتوى بخلاف ما انفصل هو عليه مقتصرا في الاستخراج على أصول المسائل ومهمّاتها وغريبها وما كثر وقوعه منها دون استيعاب تتبع الجزئيات .

ب.أ – مصادر الكتاب :

لا تبتعد مصادر برنامج الشّوارد على مصادر الأجوبة ،بل إنّ كثرة المصادر تدعو إلى الطّمأنينة وإلى أنّ الرّجل مطّلع على آراء من سبقه في المذهب ، فمصادره هي أمّهات الفقه كالمدوّنة ، الرّسالة ، النّوادر والزيادات ، الجامع ، وغيرها وكذلك كتب المدرسة المغربية ، كبير ابن ناجي وصغيره ،ويعرف بالشّتوي والصّيفي وكذلك مختصر ابن عرفة ، والجامع للبرزلي والمختصر لحلولو و يجدر التنبيه إلى مؤلفات جدّه الأعلى .

ب.ب- فيم تكمن القيمة العلمية لبرنامج الشّوارد؟

– برنامج الشّوارد يجمع المسائل التي رويت عن الإمام مالك وتلامذته كابن القاسم وأشهب وابن الماجشون ومطرف وابن وهب.

– يستعرض آراء الفقهاء ويشير إلى القول المشهور في المذهب وما به العمل ، وكثيرا ما يرجّح بين الأقوال .

– إعانة الباحث وتذييل المسائل بمعرفة مواضعها في غيره من الأمهات فهو دليل للباحث في الفقه المالكي بشكل خاص [30] .

ب. ج– تاريخ تأليف الكتاب :

صرّح ابن عظوم في مقدّمة كتابه بتاريخ تأليفه للبرنامج قائلا: انتهى وضع برنامجي هذا في ليلة السّبت غرّة شهر شعبان المكرّم من سنة 983هـ ، ثم ألحقت فيه إلحاقات وتكميلات على فروع غريبة النّقل والحكم ، فانتهيت بانتهاء شهر ذي الحجة الحرام متمّم الشّهور المذكورة [31].

وعموما فإنّ هذا الكتاب كما يشير شعبان عكاش قد سلك طريقا تقريبيا ، وقدّم أنموذجا خاصّا للطريقة التقريبية للفقه وكوّن أسلوبا جديدا في اتجاه الفقه الواقعي ، حيث كثيرا ما يربط بين الأحكام والمسائل الواقعة [32]، وقد ذكرت المصادر أنّ برنامج الشّوارد اعتمِد في الفتوى في زمنه .

ج– برنامج وثائق الفشتالي :

إذا انتقلنا إلى وثائق الفشتالي[33] وجدنا أنّ غاية ابن عظوم هي نفسها غاية كتاب برنامج الشّوارد حيث يقول مؤلفه إنّه وضع برنامجا لتراجم الكتاب ومهمّات بعض مسائله مرسوما عليها مواضعها ليسهل استخراج ذلك على مطالعه فغاية أبو القاسم عظّوم من وضعه لهذا البرنامج هو تقريب هذه المسائل من المطالع وتسهيل تناولها [34]

د- تراجم المختصر الخليلي :

مختصر خليل كان عمدة المالكية في مشارق الأرض ومغاربها ، وكان محفوظهم وقد اعتنوا به شرحا وتدريسا ،وسبب اعتناءهم به أنه أجمع كتاب في الفقه المالكي مع الاختصار ، بل اقتصر على ما به الفتوى .

د.أ- ابن عظوم يسلك طريقة مبتكرة للتقريب الفقهي :

لا يجهل أحد ما يميز مختصر خليل من كثرة الرّمز وصعوبة اللفظ التي كان سببها كثرة الاختصار حتىّ إنّ ابن خلدون عاب هذه الطّريقة في مقدّمته ، ولقد تلخّص جهد أبو القاسم في تبويب أغلب المسائل وشرحها وإرجاعها إلى أصلها وإبداء رأيه في بعضها معتمدا على ثلاثة كتب هي :

مختصر ابن عرفة ، كبير ابن ناجي ، الجامع للبرزلي وقد ذكرنا أنّ اعتماد ابن عظوم على هذه المدوّنات بشكل خاص كونها تمثّل عصارة فكر المدرسة الإفريقية في ذلك الوقت وقد أشار محمّد الشّاذلي النيفر إلى أنذ الطريقة التي سلكها أبو القاسم عظّوم طريقة مبتكرة غير الطّريقة القديمة ولا الحديثة .

د.ب- طريقة ابن عظوم في تراجم المختصر

طريقة ابن عظوم في تراجم المختصر أن يذكر الترجمة – العناوين أو الأبواب – ويذكر المسائل التي تحتها وهو في الحقيقة لم يقم باستقصائها كلها وإنما اقتصر على ما يخفى على الباحث تحصيله .وفي هذا التخريج فوائد تتمثل في التيسير على الطّالب معرفة ما يكون تحت الترجمة والفائدة الثانية أنها تشير إلى مظان المسائل التي لم تُذكر.

تظهر شخصية ابن عظوم في توسّعه وإضافته لمصادر أخرى لم ترد في مختصر خليل [35]

وقد أشار النيفر إلى أنّ صاحب البرنامج أراد أن يخطو بالفقه الخليلي خطوات أخرى ، وهي أن يعرّف بالمسائل في مكان بسطها لأنّ خليل لا يشير إلى المسألة إلاّ اقتضابا أو رمزا ، ويشير أيضا إلى أنّ هذه الطّريقة التقريبية ترمي إلى عمل أشبه بالجذاذات — الفيش – التي

تُدوّن فيها المسائل ، وممّا يعيبه النيفر أن عملية الاستقصاء التي قام بها ابن عظوم لم تكن كلية والبتر يظهر جليا في قسم المعاملات .

من خلال البرامج السّابقة يظهر أسلوب أبو القاسم عظوم واضحا في تقريب الفقه وتذليله للباحثين ، وأنا أرى أنّ استقصاء المسائل وربط الجزئيات بالكليات إنما راجع لتأثرّ الفقهاء بالمنطق خاصة أنّ جمل الخونجي كانت من محفوظات المدرسة البرزلية وكان يعتمدها ابن عرفة وغيره وأبو القاسم عظوم تأثر تأثرا واضحا بمنهجهم .

4- لماذا ابتكر أبو القاسم عظوم هذه البرامج الفقهية ؟

تبدو من مؤلفات ابن عظوم التقريبية للفقه أنه أراد أن يبسّط الفقه المالكي ويدعّمه بأسلوب ميسّر وسهل وربما يرجع سبب هذا الاهتمام بهذه البرامج إلى الحوادث التي حدثت بتونس وأضعفت المدرسة المالكية فبعد الحملة الاسبانية نُهبت خزائن الكتب ودُرِست معالمه ، وكذلك اعتماد الإدارة التركية على قضاة حنفيين أضعفت الهمة في طلب الفقه المالكي ، كل هذه الأسباب دعت المترجم إلى أن يؤلفّ هذه البرامج الفقهية حفظا للمذهب المالكي [36]

الهوامش

1 ترجم لنفسه في مقدمة كتابه برنامج الشّوارد ونجد ترجمته أيضا في المصادر الآتية :
حسين خوجة ،ذيل بشائر أهل الإيمان، ص 183.
الوزير السّرا ج ، الحلل السندسية، ج2 ،ص345،346. الكناني ، تكميل الصّلحاء والأعيان ، ص 25، 26. السنوسي ، مسامرات الظريف ج 2 ،ص155. البغدادي ، إيضاح المكنون ،ج 2 ،ص455. محمد مخلوف، شجرة النور الزكية ص292. محمد محفوظ ، تراجم المؤلفين التونسيين ،ج 3 ،ص 401.

2 ذكره محمد مخلوف في شجرته بأنه أبو الفضل قاسم بن الشيخ زرّوق بن الشيخ محمد وقد استدرك محمد الشاذلي النيفر على محمد مخلوف بأنّه وقع في ثلاثة أخطاء : في اسمه حيث سماه قاسما وهو بلقاسم ، وفي اسم والده حيث سماه زرّوقا وهو مرزوق وفي جده الأدنى فهو عبد الجليل لا محمد. ينظر محمد الشاذلي النيفر ، بلقاسم عظوم والبرامج الفقهية ، ص 16 ، وقد لاحظت أنّ هذا الخطأ قد وقع فيه أيضا محمد محفوظ في تراجم المؤلفين التونسيين ، بيروت ، دار الغرب ، ط1 ، 1404هـ، 1984 م ، ج 3 ،ص 401 .

3 محمد الحبيب الهيلة ، المفتي أبو القاسم عظوم في عصره لمعة نور في عصر آفل ، ص 37.

4 هذه الرسالة حققها محمد الطاهر الزّقي وطبعتها مكتبة الرشد وفيها ردّ على الإمام البرزلي في مسألة الاسترعاء ، وأنا بصدد تحقيق فروعها وأصولها حسب العرف القيرواني ضمن شهادة الدكتوراه وأشير إلى أنّ الشاذلي النيفر استبعد تتلمذ محمد بن عظوم الجد الأعلى لابن عظوم على البرزلي لان البرزلي توفي سنة 841هـ وهذا الجد توفي سنة 950 هـ فإن يكن أخذ عن البرزلي يلزم أن يكون من مواليد رأس القرن التاسع أو ما هو قريب منه وقد توفي في أواسط القرن العاشر فليس هو من المعمرين الذين عاشوا قرابة مائة وخمسين سنة بل رجح تتلمذه على تلامذة البرزلي. محمد الشاذلي النيفر، بلقاسم عظوم والبرامج الفقهية ،مجلة جوهر الإسلام ، ص 24

5 محمد الطاهر الزّقي ، متطلبات الشهادة على المشهود عليه مع تحقيق رسالة نعوته ، الرياض ، مكتبة الرشد ،ص 70، 72 وقد تقدّم بها لنيل درجة الدّكتوراه إلى كلية الزيتونة للشّريعة وأصول الدين .

6 محمد الشاذلي النيفر ،بلقاسم عظوم والبرامج الفقهية ، ، ، ص 23 . ولمن أراد الاطلّاع على شهرة عائلة العظاظمة وعلى إنتاجهم العلمي يراجع : الهيلة ، المفتي أبو القاسم عظوم لمعة نور في عصر آفل ، ص 33 وما بعدها.

7 ابن أبي دينار ، المؤنس في تاريخ افريقية وتونس ، تحقيق محمد شمام ، تونس ، المكتبة العتيقة ، 1967 ،ص 164.

8 المصدر السابق ص 176

9 فقد صدرت رسالة عن السلطان العثماني موجهة إلى سلطان تونس الحفصي أحمد بتاريخ سبع وستين تسعمائة 967هـ قال فيها : وقد كان عزمنا الشرّيف مصروفا لفتح تلك الدّيار واستخلاصها من أيديهم نصرة لأهالي الإسلام وعزة لدين سيد الأنام ، ينظر الهيلة ، أبو القاسم عظوم لمعة نور في عصر آفل ، ص 23.

10 إنّ اختلاف المؤرخين في تحديد أرقام أجزاء الأجوبة يُرجعه محقّق الكتاب – الحبيب الهيلة– لكونه لم يكن متوفرا كما انه لم يكن منتشرا بين أيدي طلبة العلم أمّا اليوم فالكتاب محقّق ونشرته بيت الحكمة في أحد عشر مجلدا .

11 أحمد قاسم ، أوضاع إيالة تونس العثمانية على ضوء فتاوى ابن عظوم ،ص 3.

12 يرجع بعض الباحثين تأليف أبو القاسم عظوم لنوازله بين سنة 983هـ وهي السّنة التي تولّى فيها أبو القاسم عظّوم القضاء إلى غاية سنة 1009هـ وهي السنة التي ورد فيها آخر سؤال في الجزء العاشر والتي اعتبر فيها أبو القاسم عظوم حيا

13 محمد الطاهر الرّزقي ، الأجوبة العظّومية ،مجلة جامعة الزيتونة ، العدد 2 ، 1993، ص 138

14 أبو القاسم عظوم ، الأجوبة ، تحقيق محمد الحبيب الهيلة ،ج1 ،ص72.

15كرونة عملة اسبانية وقع تداولها زمن استيلاء الاسبان على تونس ، وقد ذكرها المؤلف مرات عديدة بالرغم من أن تونس آنذاك ما زالت تعود إلى الدّولة الحفصيّة ينظر ا ابن عظوم ، الأجوبة ، تحقيق محمد الهيلة ج1 ،ص 58.

16وحقيقة هذا الوادي كما ذكر أنه لجأ إليه التونسيين إثر هجوم الاسبان تحت قيادة دون خوان في شهر أكتوبر سنة 1573م وهو يقع في ناحية جبل الرصاص في طريق مدينة زغوان . ابن أبي دينار ، المؤنس ،ص 17 .

17 قاسم أحمد ، أوضاع إيالة تونس ج 1 ص10،.

18لاحظت أنّ المصادر التي اعتمدها هي أغلب أمّهات الفقه المالكي كالمدونة ، الموطأ، الرّسالة ، الطّرر ، سماع أشهب ، أضف لها بصفة ثابتة الكتب التي تمثل رأسا المدرسة المغربية والمتمثلة في مختصر ابن عرفة وجامع البرزلي وكبير ابن ناجي ومؤلفات والده وسأشير إلى هذه المصادر في مؤلّفه برنامج الشّوارد.

19جمعة محمود الزّريقي ، دراسة في فتاوى الشيخ عظوم القيرواني من خلال كتاب تذييل المعيار للشيخ عبد السّلام التّاجوري ،ص 10.

20 الأجوبة ج1 ص58

21 المصدر السّابق ص 60

22 المصدر السّابق ص 67

23 المصدر السّابق ص 58

24هي الكيس ج1 ،ص 89.

25المربع قماش لطيف تضعه المرأة على رأسها وهو مزدان

26الفراش المرتفع المصنوع من الخشب

تستعمل للدلالة على الجانب المرتفع من الغرفة وهو الفراش الخشبي الذي يستعمل للجلوس أو لنوم شخص

27تستعمل للدلالة على الجانب المرتفع من الغرفة وهو الفراش الخشبي الذي يستعمل للجلوس أو لنوم شخص

28غطاء يقي من البرد ابن عظوم ، الأجوبة ج 1 ،ص 100.

29وعاء من شعر يوضع على ظهر الدابة ، المخلة كيس توضع فيه الأغراض ينظر دوزي ملحق للمعاجم ج1 ،ص85.

31ففور انتهاء أبو القاسم عظوم من برنامج الشّوارد ابتدأ أجوبته وهي السّنة التي ولي فيها القضاء .

32شعبان محمد عكّاش ، الفقيه المالكي ابن عظوم وكتابه برنامج الشّوارد ،ص 95.

33الفشتالي ذكره مخلوف في شجرته في فرع فاس وهو قاضي الجماعة بفاس ، الفقيه المحقق ، الموثق وكتابه في الوثائق مشهور توفي سنة 779هـ. محمد مخلوف ،شجرة النور ،ص 236.

ووثائق الفشتالي يوجد نصفها في مكتبة الشّيخ الشّاذلي النيفر وتوجد منه نسخة بدار الكتب الوطنية تحت رقم 1898.

34ينظر ابن عظوم ، الأجوبة ،ج1 ، ص 26 والطاهر الرّزقي ، متطلبات الشهادة على المشهود عليه ص 98

35 محمد الشاذلي النيفر : تراجم خليل لعظّوم والطرق التقريبية للفقه ، ص 111

36 محمد الشّاذلي النيفر ، بلقاسم عظوم والبرامج الفقهية ، ص 23.